علياء المغني، شرق المتوسط، تاريخ من الصراع (1291–1517م)، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.....عرض د. طارق منصور

يعتبر البحر المتوسط مركز العالم القديم، بل والعالم المعاصر أيضاً. ولا نبالغ إذا قلنا أنه كان وما زال مركز الصراعات العالمية، أو الصراع بين الشرق والغرب؛ كما كان في يوم من الأيام مركزا للحضارات القديمة، التي تحيط بسواحله الشرقية، والجنوبية، والشمالية، والغربية، رغم التباين فيما بينها؛ حتى صار الرومان يطلقون عليه كلمة "بحرنا".

وقد ظل الفرس قديما يبذلون أقصى طاقاتهم للوصول إلى البحر المتوسط، ليجعلوا من أنفسهم القوة الشرقية المهيمنة عليه، وهو ما حدث بالفعل زمن الساسانيين، الذين أزاحهم الإمبراطور هرقل (610–641م) في نهاية المطاف إلى الخلف، بعيداً عن البحر المتوسط، وهو الصراع الذي وثقه القرآن الكريم في الآيات الأولى من سورة الروم.

ومع ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، وتمكن الدعوة الإسلامية من إعادة تشكيل العرب، ليصبحوا أمة فاعلة، قادرة على مواجهة الاخر بجيوش نظامية، تضارع جيوش الروم؛ مما أعجز قيصر الروم أو الإمبراطور البيزنطي عن صدهم ودفعهم للصحراء ثانية، مثلما فعل مع الفرس. وكانت كلمة السر "الإسلام"، الذي تمكن من نبذ الفرقة بين القبائل العربية، وتوحيد كلمتهم تحت راية التوحيد، وزعامة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين، وإصرارهم على نشر راية التوحيد بين الأمم التي قد لا تعرف "التوحيد" أو التي انحرفت عقائدها عن المسار الصحيح.

ويحسب لأبي بكر الصديق (632–634م) أنه كان صاحب المبادرة الأولى للخروج بالإسلام خارج الجزيرة العربية، بعد أن مهد له النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) برسائل سلمية للملوك والأمراء المجاورين للجزيرة العربية، يدعوهم فيها لاعتناق الإسلام.

واستمرت مسيرة الفتوحات الإسلامية زمن الدولة الأموية، لاسيما في عهد معاوية بن أبي سفيان (661–680م)، الذي بدأ يغزو في البر والبحر، ويقاتل الروم هنا وهناك، لتمتد رقعة الدولة الإسلامية في خلال بضعة عقود إلى غرب البحر المتوسط، بل وبدأ الأمويون في قتال الفرنجة غرباً، بعد أن نجحوا في التغلب على الإسبان والقوط الغربيين، وأصبحت لهم دولة فتية ذات نظم وحضارة في الأندلس، جعلت الغرب يضرب بها المثل في العلوم والفنون والآداب.

ولم تغرب شمس القرن السابع الميلادي، ويهل القرن الثامن الميلادي إلا وكان المسلمون هم القوة الضاربة في البحر المتوسط، يقاتلون الروم وغيرهم كأنداد لهم، مما أعاد تشكيل خريطة القوى الدولية في البحر المتوسط، بحيث أصبحت القوتان العظمتان في البحر المتوسط

هما: قوة الروم وقوة المسلمين، أو أصبحا كنجمين يتلألأن في السماء، على حد قول البطريرك نيقولا مستيقوس لأمير جزيرة كريت المسلم.

ومع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي بدأت موجة جديدة من الأعداء الوافدين على الشرق الإسلامي من برابرة أوروبا يغيرون علينا، أعني الفرنجة بلغة المصادر، أو الصليبيين بالمصطلح الغربي، الذين تستروا خلف الصليب، وبدأوا يشنون الحرب على المسلمين شرق المتوسط، باسم المسيح، والمسيح منهم برىء؛ بحجة تخليص قبر المسيح من أيدي الكفرة الذين يمنعون الحجاج ويدنسون القبر المقدس. وهنا ظهر الصليبيون على حقيقتهم، وأنهم ما جاءوا يقتلون وينهبون ويذبحون الأبرياء العزل إلا لكي يؤسسوا إمارات صليبية–إقطاعية لهم في شرق المتوسط، على حساب ضعف الخلافة العباسية، وفشل الدولة الفاطمية في ردهم عن الشام وفلسطين، وانتهى الأمر بضياع بيت المقدس والأجزاء الساحلية من بلاد الشام من أيدي المسلمين، وأصبح الصليبيون قوة مناوءة للمسلمين في شرق المتوسط. ومن هنا بدأت مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين إلى أن انتهى وجودهم تماماً على أيدي السلاطين المماليك. ومع هذا، ظل تهديدهم قائما ممثلاً في فرسان المعبد والاسبتارية الذين اتخذوا من قبرص مستقراً لهم ولهجماتهم البربرية.

وما أن انتهى السلاطين المماليك من تطهير الأراضي الإسلامية من رجس الفرنجة، حتى لاحت في الأفق الأطماع التركية–العثمانية في الأراضي الإسلامية–العربية شرق المتوسط، متهمين السلطان المملوكي قانصوه الغوري (1501–1516م) بالتواصل مع الشاه إسماعيل الصفوي (1502–1524م) والتآمر ضد السلطان سليم الأول (1512–1518م). لتبدأ سلسلة جديدة من الصراع بين سلاطين المماليك والعثمانيين، لاسيما زمن السلطان قانصوه الغوري والسلطان طومانباي، والذي انتهى باحتلال السلطان العثماني سليم الأول مصر عام 1517م بعد هزيمة الجيش المصري في موقعة الريدانية، الذي تعرض للخيانة، مثما تعرض جيش السلطان قانصوه الغوري من قبل، وكانت سبباً في هزيمة الجيش المصري في معركة مرج دابق عام 1516م.

وفي هذا الكتاب تمكنت المؤلفة من رصد حركة الصراع الدولي في شرق البحر المتوسط، ما بين المماليك والصليبيين من ناحية، وما بين المماليك والعثمانيين من ناحية أخرى، بصورة دقيقة، وباسلوب شيق، مستخدمة مجموعة من المصادر التاريخية المهمة للدراسة، ليخرج لنا هذا الكتاب بهذا المستوى العلمي الرصين، الذي يؤصل لجذور الصراع في شرق المتوسط.

ومن قراءة الكتاب يستطيع القاريء العربي أن يرصد حركة تطور القوى العالمية في البحر المتوسط، لاسيما في ختام العصور الوسطى، وهى الفترة التي ظهرت فيها القوميات

الأوروبية، وعصر النهضة في أوروبا، وظهور اللغات القومية لكل أمة من الأمم الأوروبية، على حساب تراجع اللغتين اللاتينية واليونانية، كلغات أم لها، وبدأت الدول الغربية تكاد ترسم حدوداً سياسية لها، مما جلب عليها النزاعات والحروب، لتبلغ أشدها بحرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا.

وشهدت تلك الفترة أيضاً نمو القوة التركية العثمانية وهي تزحف من الأناضول شرقًا إلى أراضي البلقان غربًا، بعد أن دخل السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عام 1453م، وجعلها قصبة ملكه. وبعد هذا الفتح الذي بث الحماسة في نفوس القوات التركية–العثمانية، اندفعت لغزو دول وممالك أوروبا الشرقية، واحدة تلو أخرى، لتضم أراضيها إلى الأراضي العثمانية، وتتحول إلى إمبراطورية مترامية الأطرف يحكما السلطان العثماني، إلى أن دقت القوات العثمانية أبواب فيينا، وهنا كانت الضربة القاضية لها في 12 سبتمبر عام 1683م، لتحل بها الهزائم واحدة تلو أخرى وترتد إلى الخلف تدريجياً.

جدير بالذكر أن الأطماع العثمانية في أراضي غير المسلمين كانت تسير جنباً إلى جانب أطماعها في الأراضي العربية، ولم لا وهي التي تحوي الحرمين الشريفين اللذين كان في حوزة سلطنة المماليك في مصر والشام، ولن يستقيم للسلطان العثماني أن يصبح سلطانا على المسلمين جميعًا إلا بالسيطرة على الجزيرة العربية بكل ما أوتي من قوة، وكبح جماح حركات المعارضة الوطنية، التي كانت تظهر من حين لآخر، بين الشعوب العربية.

وقد هدفت المؤلفة من وراء هذا الكتاب إلى:

- إلقاء الضوء على القوى في شرق المتوسط من أواخر القرن الثالث عشر وحتى أوائل القرن السادس عشر.
- التعرُّف على العلاقات السياسية والاقتصادية بين دول الصراع في هذه الحقبة الزمنية.
- إثبات أن منطقة شرق المتوسط، هي بؤرة صراع دولي على مرّ العصور، بل وحتى الآن.
- التوصل إلى نتائج الصراع في شرق المتوسط وأثره على دول الصراع.
- رصد الأهمية الجغرافية والاقتصادية والسياسية لبدان شرق البحر المتوسط.
- رصد التغيرات الأساسية في خطوط المواجهة السياسية والعسكرية والثقافية بين عالم الإسلام وعالم المسيحية.
- الوقوف على أثر العوامل الاقتصادية في تحريك دفة العلاقات؛ سواء السلمية أو العسكرية بين قوى الصراع.

وفي ختام كلمتي يمثل هذا الكتاب، الذي كان في الأصل رسالة دكتوراة في تاريخ العصور الوسطى، رؤية جيدة جداً لطبيعة الصراع بين القوى في شرق المتوسط في ختام العصور

الوسطى، والذي انتهى في بدايات القرن السادس عشر الميلادي بأن أصبح الأتراك– العثمانيون هم سادة شرق المتوسط، بعد أن دحروا القوى الإسلامية الشرقية.

ʿAliaa' al-Mughnī, *The Eastern Mediterranean, a History of Conflict (1291-1517AD)*, Cairo: Al-Dar al-Massriyyah al-Libnaniyyah, 2014. (in Arabic)…… Book review

By Tarek M. Muhammad
Ain Shams University, Egypt
tarekmansour@art.asu.edu.eg

The Mediterranean has always been and still is a place where East and West meet and fight. It was once the centre of ancient civilisations that surrounded its shores, despite the differences between them. The Romans even called it "mare nostrum", i.e. "our sea". The ancient Persians tried really hard to reach the Mediterranean, and they became the most powerful eastern force there. This is exactly what happened during the time of the Sassanids, who were eventually pushed back by Emperor Heraclius (610-641 CE), far from the Mediterranean. This struggle is written about in the Holy Qur'an in the first verses of Surat al-Rūm.

When Islam arrived in the seventh century, it helped to make the Arabs into a strong nation. They had regular armies that were just as strong as the Byzantines. This meant that the Byzantine Emperor couldn't push them back into the desert, as he had done with the Persians. The secret was Islam, which brought the Arab tribes together and united them under the belief in one God. The leaders of the Prophet Muhammad (PBUH) and his Rightly-Guided Caliphs were very strict about spreading monotheism (the belief in one God) to other nations. They wanted to help those nations that might not have known about monotheism or whose beliefs had gone wrong.

It was Abū Bakr al-Siddīq (632-634 CE) who was the first to take the initiative to spread Islam outside the Arabian Peninsula, after the Prophet Muhammad (PBUH) had sent messages to the kings and princes living nearby, inviting them to embrace Islam. The Islamic conquests continued during the Umayyad dynasty, particularly during the reign of Muʿawiyah ibn Abī Sufyān (661-680 CE). He began raiding by land and sea, fighting the Byzantines here and there. In just a few decades, the Islamic state grew to reach the western Mediterranean. The Umayyads even started fighting the Franks in the West, after they had beaten the Spanish and the Visigoths. They set up another Islamic state in Andalusia, which was a model for the West in science, art, and literature.

By the seventh and eighth centuries, Muslims were the most powerful nation in the Mediterranean, fighting with the Byzantines and others. This changed the balance of power in the Mediterranean, with the Romans and the Muslims becoming the two main powers. They became like two stars twinkling in the sky, as Patriarch Nicholas Mestikos said to the Muslim *emir* of Crete.

At the end of the eleventh century, the Franks moved towards the Eastern Mediterranean to invade the Syrian and Palestinian lands. They hid behind the cross and waged a war against the Muslims of the Levant, in the name of Christ, to free the tomb of Christ from the hands of the non-believers, who they claimed were stopping pilgrims from visiting and disrespecting the Holy Sepulchre. They had come to kill, steal, weak and kill innocent people. They wanted to create feudal Crusader emirates in the Eastern Mediterranean. This was because the Abbasid Caliphate was weak, and the Fatimid state could not stop them from taking over the Levant. This led to the loss of Jerusalem to the Muslims, and the Crusaders became a force opposing the Muslims in the Eastern Mediterranean. This was the start of the Islamic *jihād* against the Crusaders, which continued until the Crusaders were completely defeated and expelled from Syrian lands by the Mamluk sultans. But they were still a threat, and were represented by the Knights Templar and Hospitallers, who set up base in Cyprus to launch their barbaric attacks.

The Mamluk sultans had just finished getting rid of the Frankish invaders in the Islamic lands when the Turkish-Ottoman forces started to expand into the Islamic-Arab lands of the Eastern Mediterranean. They accused the Mamluk Sultan Qansuh al-Ghawrī (1501-1516 CE) of communicating with Shah Ismail I (1502-1524 CE) and conspiring against Sultan Selim I (1512-1518 CE). There were new conflicts between the Mamluk and Ottoman rulers, especially during the rule of Sultan Qansuh al-Ghawrī and Sultan Tumān Bāy. This conflict ended with the Ottoman Sultan Selim I taking over Syria and Egypt in 1516-1517 AD, after the Egyptian army was beaten at the battle of Ridāniyyah. The Egyptian army was betrayed, just as Sultan Qansuh al-Ghawri's army had been, and this is why the Egyptian army was defeated at the battle of Marj Dābiq in 1516 AD.

In this book, the author accurately and engagingly describes international conflicts in the Eastern Mediterranean. These were between the Mamluks and the Crusaders on one side, and the Mamluks and the Ottomans on the other.

This book uses a range of important historical sources to provide solid research at a scholarly level, which establishes the roots of the conflict in the Eastern Mediterranean. Turkey sees itself as the new

version of the Ottoman Empire and wants to make its former glory again. The Ottoman Empire was built on the ruins of the lands and peoples it conquered.

By reading the book, you can see how the power of different countries in the Mediterranean changed, especially at the end of the Middle Ages. This was the time when European countries started to feel more proud of their own countries, and when the Renaissance (a time when people started to think differently about art, literature and science) happened in Europe. It was also when national languages started to be used in each European country. Western countries started to create their own political borders. This led to conflicts and wars, which ended in the Hundred Years' War between France and England.

In this book, the author accurately and engagingly describes international conflicts in the Eastern Mediterranean. These were between the Mamluks and the Crusaders on one side, and the Mamluks and the Ottomans on the other.

This book uses a range of important historical sources to provide solid research at a scholarly level, which establishes the roots of the conflict in the Eastern Mediterranean. Turkey sees itself as the successor to the Ottoman Empire and wants to make its former glory again. The Ottoman Empire was built on the ruins of the lands and peoples it conquered.

This period also saw the growth of Ottoman-Turkish power as it expanded from Anatolia in the east to the Balkans in the west. This happened after Sultan Muhammad the Conqueror captured Constantinople in 1453 AD and made it the capital of his sultanate.

After this, the Turkish-Ottoman forces attacked the countries and kingdoms of Eastern Europe. They took over one country after another, making them part of the Ottoman Empire. The Ottoman forces finally reached the gates of Vienna on 12 September 1683. They suffered one defeat after another and gradually moved back towards the East.

Notably, the Ottomans directed their armies to take over European lands as well as Arab lands and the Two Holy Mosques, which were controlled by the Mamluks of Egypt and Syria.

The author says her goals in this book are to:

- Explain the main reasons for what was happening in the Eastern Mediterranean from the late 13th century to the early 16th century.
- Find out about the political and economic links between the countries that were at war with each other during this time.

- Show that the Eastern Mediterranean region has always been a place where many countries have fought each other, and that this continues to happen today.
- Find out what happened as a result of the conflict in the Eastern Mediterranean and how this affected the countries involved.
- Keep an eye on how important the countries of the Eastern Mediterranean are, in terms of geography, the economy, and politics.
- Keep an eye on the big changes in the areas where the Islamic and Christian worlds are at odds with each other.
- Look at how the economy affects relations, both peaceful and military, between the countries that are fighting.